مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 1/ العـدد: 04 (2014)، ص 41- 59

مسألة إلغاء الخلافة الاسلامية العثمانية1924 م، بين مقتضيات الشّرع وتحدّيات الواقع (دراسة مقارنة بين مواقف رشيد رضا وابن باديس)

امحمد دراوي[1]

[1]المركز الجامعي-خميس مليانة- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2014/11/01 تاريخ القبول: 23 /2014/11 تاريخ النشر: 2014/12/01

شكّلت مسألة إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية1 في بداية القرن العشرين، وتحديدا في 24 نوفمبر 1924م، من طرف مصطفى كمال اتاتورك2، إحدى الموضوعات الكبرى التي شغلت الرّأي العام الإسلامي ردحا من الزّمن، وألقت بضلالها على نشاط النّخب على اختلاف أطيافها وتوجّهاتها ، من الأطلسي إلى جاوة، بين مؤيّد ومعارض. ولقد انخرطت الحركة الإصلاحية مشرقا ومغربا في النّقاش الدّائر حولها، على اعتبار المكانة الدينيّة والسياسيةّ التي كانت تتمتّع بها مؤسّسة الخلافة في المجتمع المسلم، كما أنّ زوالها هو إيذان بزوال شوكة المسلمين ، وانفتاح أقطارهم على مصراعيها أمام النفوذ الاوربي الأجنبي المتربّص وخاصّة في البلاد العربية، التي كانت جزءا من الدّولة العثمانيّة .وهو ما أصطلح عليه تاريخيّا بالمسألة الشرقيّة وتفاعلاتها.

والواقع أنّ دولة الخلافة الاسلاميّة في مطلع القرن العشرين ، أضحت هيكلا بلا روح، وجسم أثخنته جراح الصّراعات الدّاخلية، ونخرته جرثومة التّخلف المادّي والفكري والاقتصادي، وصار من العسير تسيير شؤون البلاد والعباد بالوتيرة السّابقة ، وقد عبر أحد المؤرّخين عن هذا الموقف المحرج بقوله:"ولم يكن في مقدور العثمانيّين –لقلتهم-أن ينهضوا بأمر هذا العالم الغفير، ففعلوا ما يفعله الرّعاة حينما يروّضون الغنم ، فيستعينون بالكلاب على

حراستها ، واتخذت الشّعوب الاسلامية هيأة قطعان من الماشية ، ترعى في كنف السّلطان ، وتطمئنّ في حماية الانكشارية والمماليك ، وأصبح حالها أشبه بهذه الضّفادع التي حدثنا عنها "لافونتين" أنها عجزت عن أن تردّ الأعداء عن أراضيها ، فأقامت على نفسها بجعا حاكما ، فكان يأكل من الرعيّة أكثر مما يأكل من الأعداء". 3

لقد حاول السّلطان عبد الحميد الثّاني منذ تولّيه شؤون الخلافة في الأستانة في سنة 1874 م ، بثّ روح جديدة في جسم الدّولة الذي شارف على الانهيار ، بتبنّيه لسياسة الجامعة الاسلاميّة على الصّعيد الدّاخلي، في محاولة يائسة –كما عبّر في مذكّراته-لتوحيد صفوف المسلمين ، وجمع شملهم من الهند الى مرّاكش ، وبالإستعانة برجال الاصلاح والعلماء وشيوخ الطّرق الصّوفية ، وبالمناورة مع القوى الغربية الكبرى المتأهّبة للانقضاض على الخلافة العثمانيّة لاجتثاثها ، وتقسيم ممتلكاتها ، وعلى الرّغم من التّقدم الذي أحرزه في مجال إطالة عمر الدّولة وتأخير عملية السّقوط ، إلاّ أنّ سياسته أخفقت في تحقيق غاياتها.فكانت نتيجة ذلك ازاحته من السّلطة إثر انقلاب الإتّحاديّن الأتراك عليه في سنة 1908م، ورغم ان الإتّحاديين لم يجرأوا على على إلغاء الخلافة ، فإنّ أحداث الحرب العالمية الأولى(1914-1918)وما تبعها من تطوّرات ونتائج ، عجّلت بإلغائها .

صاحبت الحركة الإصلاحية الإسلامية منذ أيام السّيد جمال الدّين الأفغاني، أحداث وتطوّرات الخلافة العثمانيّة ، على اعتبار أنّ الإنشغال يمسّها مباشرة ، فالبلاد العربيّة في الواقع كانت مستهدفة أكثر من غيرها ، كما أنّ الإهتمام بأمر المسلمين واجب تفرضه العقيدة الإسلامية .وقد مات الأفغاني في سنة 1897م بالأستانة ، وهو متحسّر على حال المسلمين المتشرذم ، ومتحسّر اكثر بإخفاق مشروعه حول الجامعة الإسلاميّة .

ولئن حمل لواء الإصلاح من بعده زعماء آخرون من مدرسته ومن غيرها من المدارس والتّيارات ، إلاّ أنّنا لا نكاد نلمس نبرته الحادّة في مواجهة الإستبداد ، ولا عزيمته في علاج التّشرذم الّذي حلّ ببلاد المسلمين.

ومن بين الّذين أدلوا بدلوهم في هذا الإطار نجد الشّيخان رشيد رضا المصلح والفقيه السّوري الكبير و صاحب مجلّة المنار، والشّيخ عبد الحميد بن باديس، رائد النّهضة الإصلاحية في الجزائر ورئيس جمعية العلماء المسلمين فيها ، منذ تأسيسها في سنة 1931م ، وإلى غاية وفاته في عام 1940م. والواقع أنّ تسليط الضّوء على نظرة علمين من كبار أعلام النّهضة الإصلاحية القرن العشرين يقودنا الى التساؤل حول نظرتهما لمسالة الغاء الخلافة؟ وماهي المسوّغات التي ساقها كل منهما لتبرير موقفه ، بالنّظر الى حساسيّة الموضوع من الوجهة الدّينية من جهة وتحدّيات الواقع من جهة ثانية ؟

موقف الشّيخ رشيد رضا:

يعتبر الشّيخ رشيد رضا*.من كبار رجالات الإصلاح الإسلامي ، من أبناء الجيل الثّاني من المصلحين في عصره ، وهو الّذي تربّى فكره في أحضان مؤسّسي حركة الإصلاح الحديثة ، جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبده، لكنّه يدين أكثر إلى هذا الأخير ، الذي تتلمذ عليه ولازمه حتّى وفاته في سنة 1904م. إلى درجة أن جلّ الذين أرّخوا لسيرته يعدّونه مجرّد ناقل لأفكار أستاذيه 4. وقد عبّر الدّكتور زكي بدوي عن هذا بقوله:"إذا كان الأفغاني ملهم المدرسة التجديدية السّلفية، ومحمد عبده هو العقل المفكّر لها، فإن رشيد رضا هو المتحدّث باسمها".5

إتّسم موقف الشّيخ رشيد رضا من الخلافة العثمانيّة منذ عهد الّسلطان عبد الحميد الثّاني والى غاية قيام الجمهوريّة التّركية ، بالتّذبذب والتّباين إلى

* الشيخ رشيد رضا (1865-1935)، من اعلام النهضة الاصلاحية في العالم الاسلامي، ولد بقرية "القلمون" بطرابلس

حد التّناقض أحيانا ، فقد كان في بداية مشواره الإصلاحي يدافع عن الخلافة الاسلاميّة في ظل الرّابطة العثمانيّة، ويرى فيها الحصن المنيع الذي لا يجوز هدمه، بل يتوجّب إصلاحه كيما يؤدّي دوره المنوط به في صون وحدة المسلمين وحماية بيضة الإسلام، ولمّا كان منشأ الخلاف حول اهمّية مؤسّسة الخلافة من عدمه يرتكّز اساسا حول مكانة ودور مختلف اطياف المجتمع الاسلامي وعناصره ، وبالاخصّ دور العرب فيها –في ظلّ سياسة التّتريك البغيضة-فقد دعا بالخصوص الى تعزيز وضع العنصر العربي داخل الدّولة العثمانيّة، لكي يسهم فيها أكثر ، من جهة، ولكي يمتلك وسائل الدّفاع عن نفسه إذا وقعت البلية الاستعمارية المتربّصة ، ومن هذا المنطلق كان رشيد رضا يعارض ويندّد بنشاطات الجمعيّات الانفصاليّة ، ويعتبرها معاديّة وهدّامة، ومكرّسة للتّفرقة بين العرب والتّرك، 6 ومنها جمعيّة الإخاء العربي-العثماني التي ظهرت في الأستانة سنة 1908م.

ومنذ نجاح الإنقلاب الّذي قامت به جمعيّة الاتّحاد والتّرقي، ضد السّلطان عبد الحميد الثّاني وخلعه في سنة 1909م، "قلب رشيد رضا ظهر المجن، وبدأ يتنكّر لمواقفه الممجّدة والمناصرة للسّلطان عبد الحميد سابقا"7.وراح ينتقد سياسته ويشهّر بفساد إدارته فيقول: " فهذا عبد الحميد خان وأعوانه، قد بغوا في الأرض وتركوا السّنة والفرض، وعطّلوا الشّريعة والقوانين ، واستبدّوا بجميع العثمانيّين وجمعوا القناطر المقنطرة من المال....فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الّرعب"8.

وفي المقابل كان متحمّسا لسياسة الاتّحاديّن –قبل أن تظهر له زيفها- ، فراح يمدحهم ويثني على إصلاحاتهم الدّستورية ، وتطبيقهم لسياسة اللاّمركزية في الحكم ، بالأخصّ في الأقاليم العربيّة التي عانت من قهر الولاة واستبداد الجيش ، واخذ يسدي لهم النّصح عبر مجلّة المنار، مقترحا في هذا الإطار العمل على زرع روح الوفاق بين العرب والتّرك ، وبين مختلف الطّوائف داخل السّلطنة،

مع توثيق الرّابطة العثمانيّة والجامعة الإسلاميّة ، كما طالب بالقضاء على مظاهر الاستبداد والعنف، والعمل على حفظ الأمن ، وتشجيع المؤسّسات النّيابيّة ، ووجوب تدارك المحاكم الشرعيّة بالإصلاح.9

لم تجري الامور في الدولة العثمانيّة كما كان يطمح ويريد ، فقد اكتشف زيف الاتحاديّين وتنكّرهم لوعودهم ، سواء في ما يتعلّق بالإصلاحات المنشودة على الصّعيد الدّاخلي وتقويّة أواصر الرّابطة العثمانيّة، أو ما تعلّق بقضايا الأمّة العربيّة ، وبالأخصّ قضيّة طرابلس الغرب (ليبيا) التي كانت جزءا من اراضي الدولة العثمانيّة ، و آلتي ظهر جليّا تفريط الاتحاديّين بها ، أمام الغزو الايطالي في سنة 1911م، لولا استماتة أهلها في الدّفاع عنها. فاخذ بقلمه وانطلق منعلى صفحات مجلّة " المنار" يكشف خططهم، ويعرّي مشاريعهم العنصريّة البغيضة، والتي تزامنت مع ظهور وتطوّر القوميّة الطّورانيّة ، التي تسعى إلى المضي بتركيّا نحو الانفصال عن جسد الأمّة العربيّة والإسلاميّة ، وتقتفي اثر الحركة القوميّة في أوربا .10

لقد هلّل الشّيخ رشيد رضا ، كما هلّلت شعوب العالم الإسلامي قاطبة، لتلك الانتصارات المدّوية التي حقّقها الأتراك ، بقيادة مصطفى كمال أتاتورك* ، الذي لقّب بسبب ذلك بالغازي ، خاصّة على اليونانيّين والانجليز في سقاريا والدردنيل غداة نهاية الحرب العالميّة الاولى، وفي ظروف صعبة واستثنائيّة ، واعتبره رشيد رضا حينها مفخرة الإسلام والمسلميّن ، وكان يأمل أن يعيد الرّجل أمجاد الخلافة ويصّلح ما أفسده الدّهر، غير أن ذلك الإعجاب لم يدم طويلا إذ سرعان ما شرع النّظام الجديد الماسك بزمام الأمور بقوّة الجيش ، في تطبيق

إجراءات أفضت إلى إلغاء الخلافة الإسلاميّة ، ذلك العمل الذي لقي استنكارا من لدن جميع المسلمين .

وقد اعتبر الشيّخ رشيد رضا حكومة أتاتورك لا دينيّة وهي في نظره اشدّ استبدادا وفسادا من سلطنة عبد الحميد الثاني وحكومة الاتّحاديّين السّابقتين ، وأكثرها عنادا في تحويل الشّعب التّركي عن الإسلام ." 11بل وأفتى أيضا بأنّ عمل مصطفى كمال في مجال الدّين وإلغاء الخلافة "محض كفر وارتداد عن الإسلام لا شبهة فيه".12

رشيد رضا والبحث عن البديل :

شرع الشّيخ رشيد رضا منذ ظهور بوادر التّخلص من الخلافة إلى كتابة مقالات مستفيضة حول موضوع الخلافة ، مستنطقا التّراث الإسلامي ، ومستندا على دعامة القرآن والسّنة ، وخلاصة ما كتبه علماء الإسلام في الموضوع كالماوردي وأبي حيان التّوحيدي وابن خلدون ...، وقد أصدرها في شكل كتاب سمّاه الخلافة في سنة 1923م، ووجّهها أساسا إلى الشّعب التّركي بالأساس معتبرا أنه أقدر الشّعوب الإسلامية على إحياء الخلافة .

قسّم رضا رسالته إلى شقّين ، شقّ نظري دعا فيه إلى إعادة تأسيس الخلافة الإسلاميّة على أساس إسلامي أصيل ، واجتهاد عصري لفهم نصوص القرآن والسّنة .13 أمّا الشّق العملي فقد اقترح فيه حلولا عمليّة لإعادة تأسيس الخلافة، بإقامتها حسبه في منطقة وسطى من العالم الإسلامي ، وقد اقترح لذلك مدينة الموصل بالعراق ، تنظّم إليها بلاد المسلمين تباعا وفق نظام لا مركزي . ورأى بأنّ أهل الحلّ والعقد هم من يتولّون هذا الأمر، باختيار الخليفة وفق الشّروط الّتي حدّدتها الشّريعة، ويعتقد بأن الحزب الإصلاحي الإسلامي الّذي ينتمي إليه هو من يمثّل أهل الحلّ والعقد ، كما اقترح إنشاء مركزا لتكوين الخلفاء وانتقاؤهم بناءا على القواعد والشّروط المحدّدة في الشّرع.14

غير أنّ تسارع الأحداث الّتي ميّزت السّاحة العثمانيّة عامّة والعربيّة بشكل خاص في مرحلة العشرينيّات من القرن العشرين، كانت من الزّخم بحيث يستحيل تحقيق التّوافق وتلافي التمزّق ، في ظلّ قيام الجمهوريّة العلمانيّة بتركيا وفق المنوال أو النّموذج الأوربّي ، وامتداد النّفوذ الصّهيو- استعماري في المنطقة العربية ، تحت غطاء عصبة الامم بعد انسحاب الاتراك منها، وساهم فيه العرب بتورّطهم الى جانب الإنجليز في الحرب العالميّة الأولى.

على اثر إلغاء الخلافة وإبعاد آخر خلفاء بني عثمان ، السّلطان عبد المجيد، دعا رشيد رضا إلى عقد مؤتمر إسلامي عام ، يكون مركزه بالقاهرة ، تشارك فيه كامل البلاد الإسلاميّة، لتدارس مسألة الخلافة ومحاولة بعثها ، رغم أنّه لم يبيّن سبب اختيار القاهرة مكانا لعقد المؤتمر .والمهمّ أنّ المؤتمر عقد وحضرت الوفود ، لكن برز الاختلاف والتنافس بين ممثلي البلاد الإسلاميّة في جملة من المسائل أهمّها ، من سيكون الخليفة ؟ في الوقت الذي ظهرت زعامات عربية حاولت تحقيق الاستقطاب واستغلال الوضع لتولّى مركز الخلافة ، ابرزها شريف مكة، الشريف بن الحسين، وملك مصر الخدّيوي فؤاد .15

يمكن القول أنّ تسارع وتيرة الأحداث والتّغيرات داخل الجهاز السياسي للدّولة العثمانية ، في هذه المرحلة العصيبة هي ربّما التي جعلت رضا لا يستقرّ على رأي واحد ووجيه ، كما أنّ طابع الحركة الإصلاحية منذ رحيل الأفغاني صارت تفتقد إلى الجرأة والمواجهة، لصالح أسلوب الشيخ محمد عبده في الاصلاح المبنيّ على المودّة واللّين والمهادنة، وتجنّب الخوض في أمور السّياسة ، لكنّه مع ذلك وبشهادة المقرّبين منه أمثال الأمير شكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب ، فقد ظل وفيّا للخلافة العثمانيّة ، ولم يأل جهدا في محاولة إحياءها، رغم أنّه لم يكن راض عن أداءها، ولا متفائلا بانبعاثها.

كما انّه اجتهد في حدود مسؤوليته كزعيم ديني ومصلح في تنبيه الأمّة وأعيانها من مخاطر التّشتّت ، والنّصح لحكّامها وقادة الرّأي فيها ، هو نفس الموقف الّذي عبّر عنه الإمام محمّد عبده من قبل، عندما صرّح قائلا: " إن كثيرا من الوجهاء المصريّين يكرهون الدّولة العثمانيّة ، وانأ أيضا أكره السّلطان، ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدّولة العثمانيّة سوءا فإنها سياج في الجملة ".16

والظّاهر أنّ الشّيخ أصيب بخيبة أمل ، بعد فشل مؤتمري الخلافة ، ورأى بعينه تشتّت البلاد الإسلامية ، وخضوعها للأجانب ، ما جعله يوليّ وجهه شطر الأماني القومية، مع تفاقم الاوضاع خاصّة في بلاده الشّام رفقة زميله شكيب أرسلان.

موقف الشّيخ عبد الحميد بن باديس17:

قبل الخوض في طرح موقف الامام ابن باديس من موضوع الخلافة الاسلامية العثمانية، لابدّ من توضيح بعض النّقاط التي تشكّل في اعتقادي مفاتيح ضروريّة لفهم الموقف وحيثياته ، فالإمام عبد الحميد بن باديس ينتمي إلى الجيل الثّاني من المصلحين الاسلاميّين، بعد روّاد الجيل الأول الاصلاح، الافغاني وعبده ، وهو لم يعاصر الأفغاني، وكان لا يزال في مقتبل العمر، عندما زار الإمام محمد عبده الجزائر في سنة 1903م، حيث توفّي الشّيخ في السّنة الموالية ، اي في 1904م18. ومن ثمّ فهو لم يعايش الزّخم الّذي عايشه رشيد رضا والممتدّ من خلافة السّلطان عبد الحميد الثّاني كما اسلفنا، وهو اطّلع على ادبيّات تلك الحقبة من خلال قراءته لجريدة العروة الوثقى ومجلّة "المنار" الذائعة الصيت آنذاك، كما أنّ البيئة السياسيّة والاجتماعيّة التي ولد فيها ابن باديس ، تختلف كثيرا عن تلك التي كانت سائدة في المشرق العربي، فالجزائر كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي البغيض ، وأضحت البلاد معملا للتّجارب الإستعمارية التي طالت الامّة الجزائرية بجميع مكوّناتها ومقوّماتها ، نتج عنها غياب

وتغييب للنّخب المثقّفة ، وحرمان شديد من كل أشكال التّعبير، وبالأخص في المسائل السياسية كمسألة الخلافة مثلا، ثم إنّ الفترة الموالية للحرب العالمية الاولى مثّلت باكورة النّشاط الاصلاحي المنظّم في الجزائر ، بعد تلك المحاولات الباهتة التي شهدتها الجزائر في مطلع القرن.

ثم انّ اولويّات الحركة الاصلاحية في الجزائر ، اقتضت وبناءا على التحليل السّابق ، الاهتمام بالمسائل المتعلقة بالهويّة ، وتصحيح العقيدة ومقاومة البدع ومظاهر الجهل والشّرك ، فاذا الاهتمام بالمسائل السّياسية كان مجرّد فضول ليس الاّ، رغم أنّ ابن باديس يبرر في موقع آخر سبب عدم الخوض في أحداث تركيا ب"الإبقاء على الوحدة الإسلامية التي اتجهت نحوهم ".

يبدأ اهتمام الشّيخ عبد الحميد بن باديس بمسألة الخلافة ، في الفترة ما بعد الحرب العالميّة الأولى ، وهو لم يخف إعجابه بانجازات مصطفى كمال أتاتورك الحربيّة ، شأنه شأن غيره من عناصر النّخبة ، وحتّى من عامّة النّاس فقد صار إسم مصطفى كمال آنذاك مرادفا للتّحدي والبطولة التي طالما سمعوا عنها من افواه المدّاحين في الأسواق الشّعبية والمقاهي ، وقد عبّر الأستاذ مالك بن نبي في مذكّراته عن هذا الشّعور العام بقوله :"وكان من الأحاديث أنباء (مصطفى كمال) الّذي تحدّى القوى الاستعماريّة ، لقد أخذت صوره تنتشر انتشار صور سيّدنا علي."19 إلى أن يقول :"لقد كانت أسطورة (الغازي وعصمت اينونو)، في ضمائرنا مرادفة للخلاص و الإنعتاق ،وأصبح الميل لتركيا شائعا في البلاد كلّها."20

إنّ الصّورة الّتي صنعها أبطال ملحمتي سقّاريا والدّردنيل ، سرعان ما تخبو وتتحوّل إلى نقمة لدى جلّ النّخب الاسلاميّة ، بعدما أقدم مصطفى كمال على إلغاء الخلافة الإسلاميّة في سنة 1924م، ففي مقال بعنوان :" الفاجعة الكبرى "يقول الشّيخ عبد الحميد بن باديس :"كنّا نغضّ الطّرف عن شرورهم ومفاسدهم ساكتين عن ذكر مقابحهم ، إبقاءا على الوحدة الإسلاميّة، التي

اتّجهت نحوهم ، لمّا لشعث المسلمين حول سدّة خليفتهم، تأييدا للأمّة التّركيّة، خادمة الملّة التّابعة لهم وإرغاما لأعداء المسلمين بهم ".21

والواقع أن هذا المقال يبيّن على أنّه كان يدرك تمام الإدراك لما كان يحاك في الخفاء من طرف جماعة سالونيك، وانما يكون تعذّر بحجّة شرعيّة في هذا الإطار وهي أنّ " درء المفاسد أولى من جلب المصالح" .لكن وبعد أن تبيّن له بالدّليل القاطع سوء نواياهم ، ينقلب عليهم كما فعل رشيد رضا أيضا، لكن رده فيه نبرة ثورية صريحة، حيث يقول" لا خلافة بعد اليوم ، ولنرفض كلّ خليفة تشمّ منه رائحة الأجنبي كائنا من كان ، ولتعمل كلّ أمّة مسلمة على النّهوض بنفسها إزاء التّعارف والتّعاضد على الحق مع إخواننا حسب الإمكان ، ولا يكوننّ ما وقع مضعفا لعزائمنا مثبّطا لأعمالنا ، ما دام الإسلام ديننا وهو الرّابطة العظمى التي تربطنا ، والجامعة الكبرى التي تجمعنا.."22 وهذا النّص يبيّن انّ نظرة الشيخ ابن باديس متقاربة تماما مع نظرة السيد جمال الدين الأفغاني في ما يتعلّق بتصوّر الخلافة الإسلامية ، فهو على عكس رشيد رضا لم يرى في الرّابطة العثمانية ضرورة لإستمرار الخلافة ، بل رأيه يوافق رأي الشّيخ جمال الدّين الأفغاني الذي دعا ب "أن يكون سلطان المسلمين القرآن ووجهتهم الدّين وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ".23 كما ينبّه ابن باديس الى مسالة جوهرية تدل على المام وبعد نظر في عدم جدوى خلافة تأتي بإيعاز من الإستعمار الأجنبي في اشارة واضحة إلى تنافس أوربي (بريطاني-فرنسي) لصالح مرشّح يخدم مصالحهما بالمنطقة.

أصيب ابن باديس بخيبة الأمل، كما هو الشّأن بالنّسبة لرشيد رضا ، بعد أن كانا علّقا آمالا عريضة على مؤتمرات الخلافة الثّلاثة (القاهرة (من13الى19 ماي 1926م- ومكة (من 07جوان الى 05جويلية 1926) ثمّ القدس من (08 الى 17 ديسمبر سنة 1931م)، وعلى الرّغم من الحضور

المكثّف للعلماء والسياسيّين والاهتمام الواسع بالموضوع ، حتىّ من لدن بعض الشّخصيات الغربيّة خدمة لأغراض خاصة24، ورغم كثرة المناقشات ، إلاّ أنّها لم تثمر إجراءات ملموسة ، بل وظهر فئة من المثقّفين الّذين أثنوا على أعمال مصطفى كمال ومشاريعه التغريبيّة!!، واعتبروا انّ التّجربة التّركية الجديدة جديرة بالإشادة والإحتذاء ، و ذهبوا في الشّأن فريقين :

فريق رأى أن الخلافة العثمانيّة في أوضاعها الرّاهنة، بالأخص في ظل سياسة التّتريك التي كانت منتهجة آنذاك ، وحالة الضّعف والتّقهقر المستشري في أوصال الدّولة ، قد فقدت مبّررات استمرارها، ولم تعد تستجيب لتطلّعات الشّعوب المتباينة والأقاليم المتباعدة ، التي تحكمها و لا للتّطوّرات الكبيرة الحاصلة في العالم. أمّا الفريق الثّاني فقد جاهر بعدائه للخلافة والجامعة الإسلامّية، ودعا إلى إقامة الدّولة القوميّة والوطنيّة، و إبعاد الدّين عن معترك السّياسة وشؤون الحياة، تماشيا مع ما يحدث من تطور ورقي في العالم الغربي.

كتب ابن باديس مقالا في جريدة الشّهاب25 بمناسبة وفاة مصطفى كمال أتاتورك في سنة 1938م ، وهو مقال مطوّل تعرّض فيه بجرأة كبيرة لمسألة من أعقد المسائل في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر ، كما ينمّ أيضا عن تحليل عميق ورؤية نقدية شجاعة وصريحة لها ، يقول الدّكتور أحمد صاري انّ اهتمام إبن باديس بهذه القضيّة "تزامن مع عودة النّقاش حول مسألة الخلافة ، بعد توقيع معاهدة 1936م بين مصر وبريطانيا ، وازدياد أطماع الملك فاروق في الخلافة، بتأييد علماء الأزهر، 26 ومن ثمّ كان رد فعل إبن باديس حسبه، ينصبّ في محاولة ردّ الاعتبار لمصطفى كمال، مبرزا الانجازات التي حققتها الأمّة التّركية على يده ، وفي نفس الوقت تسفيه أحلام الحالمين من الزّعامات العربية الهشّة والخاضعة لنفوذ الاستعمار الأجنبي.

يصف ابن باديس في مقاله المذكور مصطفى كمال، بأنّه من أعظم الشّخصيات في التّاريخ الحديث ، بالنّظر إلى انجازاته الهائلة سواء في حماية تركيا من المعتدين أو في ميدان النّهضة الاقتصاديّة والعلميّة بعد ذلك. غير أنّ هذا لم يثنيه عن انتقاد سياسة مصطفى كمال تجاه الدّين الإسلامي ، فيرى أن هذه هي: " النّاحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى كمال، التي يتألمّ لها قلب المسلم ، لكنه في الوقت نفسه، يحمّل مسؤولية ما جرى أيضا إلى خليفة المسلمين والى شيخ الإسلام ومن معه من علماء الدّين، وشيوخ الطّرق الصّوفية ، والأمم الإسلامية أيضا. ويبيّن مسؤولية كل طرف في ذلك بالتّحليل والتعليل، فيقول في معرض تحليله" المسئولون الذين كانوا يمثّلون الإسلام وينطقون بإسمه، ويتولّون أمر النّاس بمفرده، ويعدّون أنفسهم أهله وأولى النّاس به.هؤلاء هم خليفة المسلمين ،شيخ الإسلام ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق الصوفيـة والأمم الإسلامية التي كانت تعد، السّلطان العثماني خليفة لها. أمّا خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الإنجليز المحتلّين لعاصمته ساكتا ساكنا مستغفرا للّه، بل متحرّكا في يدهم تحرّك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقا بإعلان الجهاد ضدّ مصطفى كمال ومن معه الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين. وأمّا شيخ الإسلام وعلماؤه فيكتبون للخليفة منشورا يمضيه بإسمه ويوزّعه على النّاس بإذنه وتلقيـه الطّائرات اليونانية على القرى برضاه، ويبيح دم مصطفى كمال ويعلن خيانته ويضمن السّعادة لمن يقتله. وأمّا شيوخ الطّرق الضالّون وأتباعهم المنومون، فقد كانوا أعوانا للإنجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم يوزّعون ذلك المنشور، ويثيرون النّاس ضدّ المجاهدين .وأمّا الأمم الإسلاميّة التي كانت تعدّ السّلطان العثماني خليفة لها فمنها - إلاّ قليلا - من كانوا في بيعتـه فانتفضوا عليه ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه، ومنها من جاءت من مستعبديها حاملة السّلاح على المسلمين شاهرة له في وجه خليفتهم .فأين هوا

لإسلام في هـذه (الكليتيات)* كلّها؟، وأين يبصره مصطفى الثّائر المحارب والمجاهد الموتور بها ؟ لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة و لكنه لم يثر على الإسلام و إنّما على هؤلاء الذين يسمّون بالمسلمين، فألغى الخلافة الزّائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم فرفض مجلّة الأحكام واقتلع شجرة زقّوم الطّرقية من جذورها، وقال للأمم الإسلامية عليكم أنفسكم، وعلي نفسي، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه."27

كما يقول إنّ الرّجل لم يستهدف الإسلام في حدّ ذاته بل على تطبيقه على نحو غير مرض، كما يلفت انتباه الناقمين والمنتقدين لمصطفى كمال ، ان ينظروا إلى حال الإسلام بالأقاليم العربية حيث تطبق القوانين الغربية ويعطي على سبيل المثال مصر.

لقد كان موقف الشيخ جريئا وصافيا خاليا من المواربة والدّوران ، ويظهر من خلاله اطّلاعه الواسع ، وتحليله الموضوعي الذي يميّز فيه بين الاشياء بعبقرية فذّة وحكمة نادرة ،فهو بقدر ماانتقد تصرفات اتاتورك حيال الاسلام ، اثنى عليه في المجالات التي نجح فيها ، ويعني بالخصوص المجالات الاقتصادية والتقنية، والحال انّ الناس مجبولون على قبول النّظام والعدل وحب التطور والرفاهية تحت ايّ غطاء كان، وهي نجاحات ظاهرة للعيان مكّنت تركيا من تبوّء مكانتها على الصّعيد الاقليمي والعالمي، والحال أنّ مؤسّسة الخلافة في حدّ ذاتها فقدت مكانها وسلطانها في الدّاخل والخارج، ولم تعد في ظلّ ضعف الاجتهاد واستبداد الحكام ، قادرة على تقديم الحلول المناسبة والاجابات الوافية لمستجدات الحياة الجديدة المتسمة بطابع التغيير الدائم والسريع.

كتب ابن باديس مقالا حول "أصول الولاية في الإسلام"، ذكر فيه الأصول التي يجب مراعاتها في نظام الخلافة مستمدا ذلك من خطبة سيدنا ابو بكر الصديق عند توليه الخلافة .وفي هذا المجال يأتي موقف ابن باديس ليعبر بصدق

عن رؤية إسلامية متفتحة على حقائق العصر ، معبرا عن نهاية الخلافة القانونية وكل مشروع وحدوي يهدف إلى توحيد المسلمين او بلاد المسلمين ، ويقترح في المقابل إقامة مؤسسة او جهاز يتولى المسائل الروحية والأخلاقية والدينية في حين يترك بقية الشؤون للدول الأعضاء في العالم الإسلامي .28

لخلاصة:

على الرّغم من انّ الشّيخين رضا وابن باديس ينتميان إلى المدرسة العبدويّة في الّصلاح ، فإنّنا نلمس بعض التّباين الذي يتجسّد في نظرة كليهما إلى مسألة الخلافة ، فبقدر ما كان رشيد رضا حريصا على التّشبث بها أو بشآبيبها في الواقع، وربّما في إطارها التّقليدي وضمن الرّابطة العثمانيّة في الغالب، فإنّ

إبن باديس لا يبدوا عليه الإكتراث بها، ورؤيته أكثر انفتاحا إنطلاقا من فهم الواقع الذي ربّما يدخل في إطار فقه العصر، ولم ير حرجا في إلغائها وأثنى على من ألغاها ، محمّلا المسؤوليّة للجميع ، وهذه تبدو نظرة أكثر عمقا للأشياء على اعتبار الآية الكريمة "إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم"(الرّعد الاية) وهي على كل إختلافات لا تفسد للودّ قضيّة ، فاختلاف العلماء رحمة ، لكنّنا نلمس أيضا أثر البيئة الثّقافية والإجتماعية في صياغة المواقف ، فالبيئة التي يسبح فيها رشيد رضا مشرقيّة بزخمها وتناقضاتها، والمشهد الثقافي ثري ومتنوّع والأغراض السيّاسية والمطامح الشخصيّة لها سلطانها ، والخلفيّات التّاريخية ترخي بظلالها على نشاط النّخب وتوجّه المواقف، ناهيك عن أثر الجغرافيا والمكان، وهي كلها عوامل تؤثر كما يقول علماء الاجتماع في صياغة الافكار وصناعة المواقف والتصورات. و يقف ابن باديس على النّقيض من ذلك ، أي في بيئة إجتماعية خالية من التّناقضات المذهبية والحسابات التّاريخية والجغرافيّة، كما أنّ الشّيخ إبن باديس كان في صراع مع الاستعمار ، وهو يدرك قيمة الإستقلال والتّقدم أكثر من غيره، او بمعنى آخر فهم التّجربة(الكمالية) بعمق وفي جميع أبعادها.

مراجع البحث:

1. نستخدم عبارة الخلافة الاسلامية مقرونة بالعثمانية للدلالة على الصبغة التي ميزتها في ظل الحكم العثماني.

2. ولد مصطفى كمال في سنة 1881 م، بسالونيك ، انظم للجيش العثماني وتالق بفضل تفانيه وطموحه حتى بلغ مرتبة عسكرية رفيعة، شارك في الحرب

العثمانية-الايطالية في سنة 1911-1912م ، استطاع ان ينظم المقاومة الوطنية في سنة 1919 م، معلنا تمرده على السلطان الذي اضحى عاجزا عن مواجهة اتحديات التي فرضتها الحرب ونتائجها، منح لقب الغازي في سنة 1921 م، وصار القائد الاعلى للقوات المسلحة. الغى السلطنة في 01 نوفمبر 1922م، واعلن عن قيام الجمهورية التركية الحديثة وكان اول رئيس لها ، اعلن الغاء الخلافة في 03 مارس 1924م، لقب باتاتورك ، توفي في 10 نوفمبر 1938م.

3. د.حسين مؤنس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث.

* الشيخ رشيد رضا (1865-1935)، من اعلام النهضة الاصلاحية في العالم الاسلامي، ولد بقرية "القلمون" بطرابلس الشام في 1865، درس مبادئ العلوم في قريته ، قبل ان يهاجر الى مصر بعد تعرض اسرته لمضايقات العثمانيين ايام السلطان عبد الحميد الثاني، اهتم بمجلة العروة الوثقى قراءة وتحليلا، فاتصل بالشيخ المصلح محمد عبده وتوثقت العلاقة بين الرجلين، حتى صار صدى لفكره ومدافعا عن نهجه في الاصلاح، وقد واصل مسيرته بعد وفاة شيخه، وسخر جهوده لتبليغ دعوة الاصلاح ، فاسس لذلك منبره الرائد المتمثل في جريدة المنار (1898-1935)، كما الف عددا من الكتب والرسائل في مسائل دينية واصلاحية متنوعة ، ويعتبر كتابه "الخلافة" خلاصة تفكيره السياسي .

4.هناك العيد من الدراسات التي تناولت سيرة وأعمال رشيد رضا منها :

الشرباصي، أحمد:رشيد رضا، صاحب المنار، نشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالازهر-القاهرة 1970.

هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب، ط.دار النهار للنشر-بيروت 1973.

البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة(1798-1939)، دار النهار للنشر-بيروت، د.ت.

زكي الميلاد: الشيخ محمد رشيد رضا وتحولات الفكر الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة، العدد 24، السنة السادسة، لبنان -صيف 1999م، ص8.نقلا عن Zaki badawi; the reformers of egypt ,p97.

6.المنار، م3 ج8 (ماي 1900) فصل: الترك والعرب ص170-172.

7. محمد الصالح المراكشي: تفكير رشيد رضا من خلال مجلة المنار(1898-1935)، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر ط1، 1985، ص117-118.

8. نفس المرجع ، ص127-128.

9 . ينظر في: المنار م12ج1(فيفري 1909)، فصل: الإصلاح الأهم المقدم، ص27.

10. للمزيد من التفصيل حول القومية التركية، انظر: x;le panislamisme et le panturquisme, revue du monde musulman ,mars 1913,pp185-200.

11 -المنار م28ج8 (1927/10/26) ، فصل: الشعب التركي ، ص 635-636.

12 -نفسه ، ص581.

13 -محمد رشيد رضا: الخلافة ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة، 1994، ص77.

14 -انظر : محمد صالح المراكشي: تفكير رشيد رضا...مرجع سابق ، ص ص135-141.

15 - للاطلاع أكثر حول الموضوع: انظر achile sekaly;les deux congres generaux de 1926,revue du monde musulman,vol LXIV,2me Trim ,1926.

16 -رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1 ، مطبعة المنار، 1931، ص913-914.

17 -عبد الحميد بن باديس : رائد النهضة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر ، ولد بقسنطينة في سنة 1308هـ/الموافق لسنة 1889 م ، من عائلة ميسورة ومثقفة ، تلقى تعليمه الاولي بمسقط راسه، ثم سافر الى تونس في سنة 1908 ، وانتسب الى جامعة الزيتونة ، واخذ العلم على مشائخها مثل محمد النخلي ومحمد الطاهر بن عاشور ، وتاثر بهما وبافكارهما الاصلاحية المستنيرة ، سافر لاداء فريضة الحج ، واتيح له في رحلته ان يلتقي باساطين الفكر والاصلاح بالمشرق، عاد الى الجزائر منذ 1922 وشرع رفقة الشيخ البشيرالابراهيمي في وضع اللمسات الاولى للاصلاح بالجزائر، وكللت تلك الجهود بانشاء جمعية العلماء المسلمية التي تراسها حتى وفاته رحمه الله في سنة 1940. للمزيد حول شخصيته واعماله انظر:

د.عمار الطالبي: ابن باديس ، حياته واثاره، 4ج، دار الامة للطباعة والنشر ، الجزائر 2009.

18-حول زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر انظر : Ali merad : l'enseignement politique de Mohamed abdou aux algeriens,1903 ,in orient n° 28 ,4e trimestre .1963.pp75-123.

و:الشيخ المهدي بوعبدلي: جوانب من زيارة الشيخ محمد عبده الى الجزائر 1903 ، مجلة الاصالة، العددان 54-55 ، مايو 1978 .

19- مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر-الجزائر، دار الفكر-دمشق، 2ط، 1984، ص.64

20-نفس المصدر والصفحة .

21-محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية .نشأتها-تطورها-اعلامها منن 1903-الى 1931. جزأين ، ش.و.ن.ت، الجزائر ، 1978، ص180، نقلا عن النجاح 1924./3/28

22-نفس المرجع ، ص .181

23-محمد الصالح المراكشي : مرجع سابق ، ص 116. نقلا عن الأفغاني: الأعمال الكاملة، الفصل 3:الأفغاني والجامعة الإسلامية ، ص 29-.56

24- من مظاهر الاهتمام الغربي بالمناقشات الدائرة حول إعادة مجد الخلافة الإسلامية، انفراد مجلة العالم الإسلامي بعدد خاص بمؤتمري الخلافة، للمزيد انظر:

Achille Sekaly Les deux congres généraux de 1926,revue du monde musulman ,vol, LXIV ,deuxième trimestre, 1926.

25-انظر امحد دراوي: الجزائر والجامعة الإسلامية ، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف الدكتور مولود عويمر ، قسم التاريخ، جامعة الجزائر ، 2008.نقلا عن مجلة الشهاب ج2م13 مايو 1938، ص 61-62.

26 -احمد صاري:شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربي بغرداية-الجزائر، 2004، ص.67

27- مجلة الشهاب : ج2 م13 مايو 1938 ، ص 61-62.

28- انظر ali merad;l'islam contemporain, édition que –sais-je?p80-84